

## التصوف، تربية على المحبة

يعتبر التصوف كما أرسى قواعده السلوكية شيوخ المغرب من أهم المميزات للخصوصيات المغربية في المجال الديني، وذلك لما تراكم أيضا في هذا المجال من رصيد تربوي، أسهم - عبر التاريخ- بصورة فعالة جدا، في تشكيل الوجدان الديني المغربي، والسلوك الاجتماعي الوطني، بما لا يمكن محوه أو تغييره. وهذه حقيقة تاريخية راسخة!

وعدم اعتبار هذه الخصوصية من لدن الوعاظ والمرشدين، من شأنه أن يؤدي بخطابهم الإصلاحية إلى عكس مقاصده التربوية تماما!

وقد كان للتصوف كما تمثله شيوخ المغاربة - ولا يزال- الأثر البالغ في تمتين الروابط الروحية، بين جميع المكونات الثقافية والاجتماعية والقبلية للمجتمع المغربي، تحت لواء واحد، هو: لواء المحبة! إذ المحبة هي غاية التربية الروحية، والسلوك الصوفي، وذلك بالسير بالمريد عبر " مقامات " التربية، و " أحوال " التزكية، حتى يصل إلى تحقيق خلة " المحبة " في نفسه، خلقا تعبديا أصيلا صادقا، يمتد في سلوكه وطبيعته إلى سائر المجالات بعد؟، بما فيها المجال الاجتماعي، و السياسي، والثقافي... إلخ، بما هي علاقات، وتصورات، ومشاعر أيضا! لأن المحبة لا تلزم في الوجدان الروحي حدا معيناً، بل تفيض مواجدها في السلوك العام للإنسان. وهذا سر القوة في التربية الصوفية، مما لا تجده في غيرها.

و من هنا كان السلوك بالناس في الخطاب الديني - تربية ووعظا - بالتدرج بهم بين " المقامات " و " الأحوال " أمرا أساسيا جدا، في سياق تحقيق النظرية الاندماجية، وترسيخ الخصوصية المغربية، في تنظيم الشأن الديني، وحسن تديره. و بيان ذلك هو كما يلي:

فالمقامات هي ما يكتسبه العبد من منازل إيمانية، بمجاهداته الروحية في طريق العبادة والزهد. فإذا حصل العبد على مقام ما كان له ذلك المقام خلقاً ثابتاً، وصفة راسخة، يبني عليها ما بعدها، إلى أن يبلغ خلة الكمال.

ومن هنا قال أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله: (فإن قيل: ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات، والمجاهدات، والرياضات، والانقطاع إلى الله عز وجل (...)) (قال) وقد سئل أبو بكر الواسطي رحمه الله عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الأرواح جنود مجندة"<sup>1</sup> قال: "مجندة" على قدر المقامات. و المقامات: مثل التوبة، والورع: والزهد، والفقر، والصبر، والرضا، والتوكل، وغير ذلك. (...) و أما معنى الأحوال: فهو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار. وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: "الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم"<sup>2</sup>.

وللإمام أبي الحسن الهجويري عبارة لطيفة في تعريف هذين المصطلحين بصورة أدق وأوضح. قال رحمه الله في سياق حديثه عن المرید: (الحال: معنى يرد من الحق على القلب، دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد، أو جذبه بالتكلف حين يذهب. فالمقام: عبارة عن طريق الطالب وموضعه في محل الاجتهاد، وتكون درجته بمقدار اكتسابه في حضرة الحق تعالى. والحال: عبارة عن فضل الله تعالى ولطفه إلى قلب العبد، دون أن يكون لمجاهدته تعلق به، لأن المقام من جملة الأعمال، والحال من جملة الأفضال! والمقام من جملة المكاسب، والحال من جملة المواهب<sup>3</sup>

ولذا كانت المنازل أو المقامات مراتب، إذا حصل عليها العبد وجب أن يحافظ عليها، لأنها مستوى معين من التدين، والفهم للدين، والقرب من الله، لا يجمل به أن يتراجع عنه. فهو ثابت. و إذن، فالمقام نتيجة العمل، والحال ذوق المقام، فآل الجميع إلى العمل! وما أحسن قول أبي بكر الكلاباذي رحمه الله: (الأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال!)<sup>4</sup>

<sup>1</sup> أخرجه البخاري 3158 ومسلم 2638

<sup>2</sup> اللمع 65-66

<sup>3</sup> كشف المحجوب: 409

<sup>4</sup> التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي: 97

ولا يزال العبد يسلك هذا الطريق متخلقا، بين تهذيب وتشذيب، حتى تصفو روحه تماما لله، محققة الرضى الكامل بالله، بما تخلق من كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله)، سلوكا أبديا إلى الله، فينال نعمة الحبة صفة ومقاما باقيا، وذلك هو نجاح التربية الصوفية في تربية الخلق، لأن مجتمعا يكون السواد الأعظم من أفراده على هذه الشاكلة، لن يصدر منه ما يمزق وحدته، ولا ما يضعف تماسكه، ولا ما يبلي نسيجه الاجتماعي.

والسبب في ذلك أن التربية الصوفية تفتح باب الأمل دائما للناس، بما تسلك بهم من منازل على سبيل التدرج. والناس في الدخول إلى أول عتبات التربية جميعا مقبولون! وهذا معنى عظيم جدا، فلا إقصاء لأحد! إذ التصوف يعتمد منزلة التوبة باب أمل للعباد، مفتوحا أمام القلوب في كل وقت وحين. وهنا يكمن نجاح الفكر الصوفي السني في الاستيعاب الشامل للمجتمع، والإدماج الكلي للناس في حضنه الدافئ.

فالتوبة عند القوم: هي أول باب يلججه السالك في مسرى المحبة. والتوبة بهذا المعنى توبتان: توبة العبد الآبق الشارد عن باب الله، وتوبة العبد السالك إلى الله. قال أبو بكر الكلاباذي: (سئل الحسين المغازلي عن التوبة، فقال: تسألني عن توبة الإنابة أو توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ قال: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك. قال: فم توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك!)

فأما الأولى فلا تكون إلا بعد مقام اليقظة، يقظة الإنسان من غفلته، واكتشافه أنه غارق في مستنقع الشهوات والمعاصي، فيشتاق إلى لحظة سعيدة مع الطاهرين، بعدما ضاقت أنفاسه بالروائح النتنة، المنبعثة من جيفة العلق المسنون! فيقرر بدء المصالحة مع الله، وذلك أول الدخول إلى مقام (الإرادة)، مع قافلة الصالحين، هاربا من رفقته السابقة مع الأشرار الغفلة:

**(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك**

**لغيره تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره**

**فرضا) (الكهف:28)**

سواء كان ذلك توبة من كفر صريح، أو من معصية دائمة. فهي في جميع هذه الأحوال خروج من فوضى الشرود ودخول إلى نظام المدار، حيث يستقيم العبد في السير إلى ربه. وتلك هي التوبة النصوح:

**(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) (التحريم: 8)**

أو كما قال النبي ﷺ (قل آمنت بالله ثم استقم!)<sup>5</sup>

والثانية توبة العبد المستقيم السالك إلى الله، إذ يصيبه الشيطان في طريقه ببعض الرشقات والنخسات، فيصيبه القبض بعد البسط، وينتبه إلى ما به من أذى، فيجأ فارا إلى الله. وهي المشار إليها في قول الله تعالى يصف عباده السالكين:

**(التائبون العابدون الحامدون السالمون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف**

**والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) (التوبة: 112).**

إنها صورة ذات إشعاع بهي، ترى فيها قافلة المحبين تقطع المسافات إلى الله توبة، وعبادة، وحمدا، وسياحة، وركوعا، وسجودا.. آية تعبر بتصويرها الجميل هذا عن حركة السير! ألا ترى أن الركوع والسجود إنما هما فعل واحد هو: الصلاة؟ لكن الله تعالى ذكر كلا منهما على حدة، لترى العبد في حركة دائمة بين ركوع وسجود! فوجي لك ذلك بالاستمرار والتجدد في الأفعال المستفادة مما سبق من عبارات: (التائبون العابدون الخامدون السائحون) رغم أن التعبير باسم الفاعل (الفاعلون) دال بذاته على ذلك، ولكن تتأكد الصورة المتحركة السائرة باستمرار إلى درجة التشخص الحي! تماما كما في قوله تعالى:

**(ترايهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر**

**السجود) (الفتح: 29)**

<sup>5</sup>أخرجه أحمد/3/413 ومسلم 38 وابن حبان 221/3 والبيهقي 458/6

(تراهم ركعا سجدا) أي لا يفترون، يحدوهم الشوق، في حركة سائرة أبدا إلى الله، إلى أن يلقوه على المحبة والرضى!

فهم هنا إذن المؤمنون (التائبون) باستمرار.. المجددون لتوبتهم بلا انقطاع. قال عليه الصلاة والسلام: (وأَتبع السيئة الحسنة تمحها...!)<sup>6</sup>

وابن آدم لا بد أن يذنب، فمن هنا كان هو ابن آدم، قال تعالى: **(وَلَمَّا سَأَلْنَا آلَ آدَمَ عَنْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالُوا لَمْ نَجِدْ لَكُمْ آيَاتٍ فَكُنَّا مُتَعَبِينَ وَرَبُّنَا أَخَذَ مِنْكُمْ الذُّبْحَانَ كُلَّهُ فَانْفَعَلْتُمْ وَلَمْ تُنْبِئُوهُمْ أَنَّمَا كُنْتُمْ فِتْنَةٌ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الْهَدْيَةِ فَكَفَرُوا بِيَوْمَ كَانُوا يَكْفُرُونَ)**

**اجتبه ربه فتابع عليه وهدي** (طه 121-122).

وقال سبحانه:

**(فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ عَلَيْهَا هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ)** (البقرة: 37)

ثم تلك إرادة الله الجميلة في خلقه، وكرمه الفياض من أنوار أسمائه الحسنی. جاء في الحديث النبوي: (ولو لم تذنبوا لجاء الل بقوم يذنبون كي يغفر لهم!)<sup>7</sup>.

والتوبة بجمع معانيها من أبهى منازل العبادة في الإسلام.. إنها خضرة الأمل الممتدة في أفق السير إلى الله، المتصلة بمنازل الرجاء، والمحبة، والشوق، والأنس بالله.. ظلال من النور البهي تظل العبد أبدا وهو يتنقل من منزل إلى منزل، ويسبح من فلك إلى فلك، وهو يمضي صعبا في اتجاه السماء، عبر مدارج المحيين!

مقام التوبة إذن يتيح لك أن تعرف الله! ومعرفة الله قربي، واقتراب.. ومن اقترب من الجمال أحبه! والحب غايته الوصال، ومن وصله الحبيب كان حاله أنسا وسرورا فأنى له إذن أن يقنط أو ييأس؟ هنا في ظلال الله لا قنوط ولا يأس.. وإنما أبواب السماء تنهمر بواردات من النور، ذات رواء علوي، يملأ الوجدان بأنداء المحبة.. قال عز وجل لعباده الغارقين في أو حال الذنوب:

**(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)**

**إنه، هو الغفور الرحيم** (الزمر: 53)

<sup>6</sup>أخرجه أحمد 153/5 والدرامي 415/2 والترمذي 1987.  
<sup>7</sup>أخرجه أحمد 304/2 وابن حبان 396/16

إنها لتعجز الكلمات والعبارات البشرية عن وصف ما يفتح عنه هذا الباب السماوي الفسيح، من خيرات ورحمات! (إن الله يغفر الذنوب جميعا!)..

الكل إذن مقبول عند الله، مأذون له في الدخول إلى حضرته تعالى، موعود للوصال.. موعود غير بعيد ولا عسير، لا تحجبه الوسائط، ولا تثقله البروتوكولات!

(ومن يعمل سوءا ويظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيفا) (النساء:110)  
وإنما أنت.. أنت أيها العبد المحب عليك أن تسأل.. أن تسأل فقط!

**(الم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، ويباح الصدقات وأن الله هو التواب)**

**(الرحيم) (التوبة:104)**

ذلكم الله الذي يعطي قبل أن يسأل، فكيف إذا سئل؟ وعليه، فالتصوف بما يملك من طاقة تربوية هائلة، في تخليق القلوب بالمحبة، كفيل بترقية الخطاب الديني لدى الوعاظ والمرشدين عموما إلى مستوى الدلالة على الله! ومن كان كذلك كان أثره فعلا على الحقيقة في ترشيد السلوك الديني العام، بما يؤمنه روحيا، ويدمجه اجتماعيا، ويمتته وطنيا.